عبد الرحمن بن الأشعث

للأستاذ جمدى الحسينى

لم يكن فى العراق رجل أبغض إلى الحجاج من عبد الرحمن ابن الأشعث لجلالته وزهوه وطموحه وعلو همته . ولم يكن فى العراق رجل أبغض إلى ابن الأشعث من الحجاج لقوته وحزمه ويقظة عينه وقلبه. كان الحجاج يقول : والله مارأيت ابن الأشعث قط إلا أردت قتله . وقد رآه ذات يوم يختال فى مشيته مزهوا فقال لبعض أصحابه : انظر إلى مشيته والله لهممت أن أضرب عنقه . فنقلت هذه القولة إلى ابن الأشعث فقال : وأنا كما زعم الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه فأجهد الجهد إذا طال بى وبه بقاء . ولكن كره الحجاج لابن الأشعث هذا الكره وموجدته عليه كل هذه الوجدة لم تمنع الحجاج من انتدابه للأمر الخطير ، وتوجيهه إياه للتغلب على الصعوبة العظيمة والخطب الجسيم

نقض رتبيل ملك الترك شروط الصلح بينه وبين المسلمين فساء ذلك الحجاج وكربه فأمر عامله على سجستان أن يغزو رتبيل فيستبيح أرضه ويهدم قلاعه ويقتل مقاتلته ويسبى ذريته فصدع بالأمر وغزا رتبيل فتظاهر الترك أمام الغزاة بالهزيمة وما كاد المسلمون يوغلون فى البلاد حتى أطبق عليهم أهلها إطباقة محكمة، فذعر المسلمون ذعراً شديداً واضطروا أن يطلبوا الصلح من رتبيل ولكن أى صلح ! طلبوا من رتبيل أن يصالحهم على أن يدفعوا له مبلغا عظيما من المال لقاء أن يفتتح لهم طريقاً للانسحاب فانسحب المسلمون وهم فى أسوأ حال . وصل خبر الهزيمة إلى الحجاج فقام له وقعد وبرق ورعد، فكتب إلى عبد الملك يقول إن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل. وقد اجترأ العدو بالذى أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم وغلبوا على حصونهم وقصورهم. وقد أردت أن أوجه إليهم جنداً كثيفا من أهل المصرين فأحببت أن أستطلع رأى أمير المؤمنين فى ذلك فإذا رأى لى بعثة ذلك الجند أمضيته، وإن لم ير ذلك فإن أمير المؤمنين أولى بجنده منى إنى أخوف إن لم يأت رتبيل ومن معه من المشركين جند كثيف عاجلا أن يستولوا على ذلك القطر كله. فأجابه عبد الملك: أتانى كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان وأولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وعلى الله ثوابهم . وأما ماأردت أن يأتيك فيه رأيى من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك القطر الذى أصيب فيه المسلمون أو كفها ، فإن رأيى فى ذلك أن تمضى رأيك راشداً موفقاً

ما كاد يصل أمر الخليفة إلى الحجاج بالتعبئة العسكرية حتى عبأ أربعين ألفا من أهل الكوفة والبصرة ، أعطاهم أعطياتهم كاملة وسلحهم بأحسن السلاح وحملهم على أروع الخيول وأخذ يستعرضهم استعراضاً عسكريا فلا يرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته، ولكن من لهذا الجيش (جيش الطواويس) كما كان يسميه الحجاج يقوده فيؤدب به أولئك المشركين الغادرين ويسترجع بلاداً إسلامية تكاد تطير من حظيرة الإسلام؟ ليس لهذا الأمر العظيم غير عبد الرحمن بن الأشعث. فولاه الحجاج على قيادة هذا الجيش العظيم برغم نصيحة إسماعيل بن الأشعث له بعدم تولية عبد الرحمن إذ قال للحجاج : لاتبعثه فإنى أخاف خلافه والله ماجاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً

طار عبد الرحمن إلى سجستان فما كادت قدمه تطأ أرضها حتى جمع الناس فصعد المنبر ثم قال : أيها الناس إن الأمير الحجاج ولانى ثغركم وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم وأباد خياركم . فإياكم أن يختلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة . اخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به معم الناس . فعسكر الناس كلهم فى معسكرهم فبلغ ذلك رتبيل فكتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه من مصاب المسلمين ويخبره بأنه كان لذلك كارها ويسأله الصلح ويعرض عليه أن يقبل منه الخراج . ولكن عبد الرحمن عرف أن رتبيل يخادعه فلم يعبأ بقوله وسار بجيشه الجرار حتى دخل بلاد المشركين فانكمش المشركون أمامه انكماش هزيمة وخضوع، وأخذوا يحملون له بلادهم بلداً بلدا

وحصونهم حصناً .. حصنا ، فأخذ عبد الرحمن كلما حوى بلدا بعث إليه عاملا وبعث معه أمواناً ، ووضع البرد بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على المرتفعات والشعاب ، ووضع المخافر المسلحة فى كل مكان مخوف . حتى إذا حاز من أرض المشركين قسطا عظيما وملأ يديه من الغنائم والأموال وقف بالزحف وقال : نكتفى بما أصبناه هذا العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نحتل فى العام المقبل ماوراءها ، ثم لم تزل تنتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ومعتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله

كتب عبد الرحمن بن الأشعث إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو وبخطته العسكرية التى وضعها للاستيلاء التدريجى على بقية البلاد المغزوة فأجابه الحجاج : إن كتابك أتانى وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة . قد صانع عدوا قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جهدا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم فى الإسلام عظيما . لعمرك إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لتحيى النفس ممن أصيب من المسلمين

إنى لم أعد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والثبات رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسلب ذراريهم ثم أردفه كتابا آخر قال فيه :

مر من قبلك من المسلمين فليحرثوا ويقيموا فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم . ثم أردفه كتابا ثالثا قال فيه : امض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم وإلا فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس خلفه وما وليته . بمثل هذه اللهجة القاسية المذلة يخاطب الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث الحاقد الطموح القابض على زمام أكبر جيش مؤلف من أهل البصرة والكوفة الحاقدين على الحجاج وبنى أمية . فى حين أن ابن الأشعث قد عمل عملا حربيا صحيحا أنتج نتائج طيبة وارتأى رأيا عسكريا فيه الشئ الكثير من الحكمة والحزم ، فكان على الحجاج إما أن يقره على رأيه أو يناقشه مناقشة تقوم على حفظ الكرامة وعدم إثارة كوامن الحقد فى نفسه . ولننظر الآن الأثر الذى أحدثته كتب الحجاج لابن الأشعث

جمع ابن الأشعث الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنى لكم ناصح وإصلاحكم محب ولكم فى كل ما يحيط بكم نفسه ناظر ، وقد كان من رأيى فيما بينكم وبين عدوكم رأى استشرت فيه ذوى أحلامكم وأولى التجربة فى الحرب منكم فرضوه لكم رأيا ، ورأوه لكم فى العاجل والآجل صلاحا ، وقد كتب إلى أميركم الحجاج فجاءنى منه كتاب يعجزنى ويضعفنى ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم . وما كاد ينتهى ابن الأشعث من خطابه حتى هب الجيش محتجا على الحجاج ثم أفضى الأمر إلى خلع الحجاج وإعلان العصيان له والخروج عليه ، وهذا ما أراده ابن الأشعث الطموح المراهم للحجاج على إمرة العراق . خلع جيش العراق الحجاج وبايع ابن الأشعث فهب عبد الرحمن يقود الجيش إلى العراق ليحتله ويتربع على كرسى الحكم فيه . وكان ابن الأشعث يضمر أكثر من هذا فقد كان يضمر خلع عبد الملك وانتزاع الخلافة منه . وصل خبر انتقاض الجيش إلى الحجاج فأبلغه الحجاج فى الحال إلى عبد الملك فكان وقع الخبر على الحجاج وعبد الملك عظيما جدا لأنهما كانا يقدران لابن الأشعث قدره ويعرفان مبلغ حقد أهل العراق على الحجاج والأمويين كل المعرفة ، ولكنهما استعدا لمقاومة ابن الأشعث بجيوش أهل الشام فتولى الحجاج القيادة بنفسه وسار بجيشه يستقبل ابن الأشعث فى طريق الأهواز فوقعت بين الفريقين معركة دامية انهزم فيها الحجاج فاستولى ابن الأشعث على البصرة فبايعه أهل البصرة جميعهم على حرب الحجاج وخلع عبد الملك ، ولكن الحجاج لم يضعف أمام هذه الصدمة فاستعد لمعركة أخرى وقعت بينه وبين ابن الأشعث فى الزاوية دارت فيها الدائرة على الحجاج أيضاً فاستجابت مدن العراق لابن الأشعث بعد هذا النصر فتوجه إلى الكوفة فخرج إليه أهلها يستقبلونه استقبال المنقذ لهم من براثن الحجاج فأصبح الحجاج ولا أثر لسلطانه على البصرة والكوفة ، فاتصل الخبر بعبد الملك ففزع له وتوقع أسوأ العواقب

٥ - رحلة إلى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

في الطريق الى القاهرة :

وبعد الشمس قطعنا الصخور وبان بان الجفا والشرور ، ولم نزل نقطع بحيرة ، وقرية قرية ما بها طيرة ، إلى أن وصلنا باسماف اللطيف الخبير، إلى محل بالإمداد مطير ، كاد لولا المونة والتبشير ، تحصيل الانقلاب فى الطيار الكبير ، ورجفت القلوب واتسع رتق الخطوب ، وكان الليل دهم وزاد الهم ولم نم إلا اليسير، لغلبة وارد ، وهم مبير ، وخرجنا فى الصباح المنير للبر المبر بأهله ، وانتظرنا الماش، ولحقناه فى قياسة ، بانتعاش، وطاب معنا الريح المريح ، إلى أن وصلنا إلى (مونسه) وبتنا بها بليلة مؤنسه ، وزرنا من حولها من سادات وأعيان ، ثم إنا خرجنا إلى البر تروح النفس بمشاهدة ملك البر وأردنا أن نسير على ظهور الخير، نحو (بولاق) لعظم اشتياق ، فرأينا المركوب لا يركب ، فعدنا إلى المركب ، ثم سرنا إلى أن سامتنا (وردان) الساحية بمارها على غيرها ذيل الخيرات وزرنا رجالها السبعة الفائقين على النجوم السيارة والميزان . ثم خرجنا إلى (بحر التضامى) وحزت بزورته يرا مراعى، ثم وقبل أن وصلنا (بحر الخمسين) قرأنا الفاتحة لسيدى إبراهيم ساكن الجيز ومن حوله من سادات له على الغير مبز، ولما وصلنا المجر ، خرجنا ثانيا إلى البر، وسرنا وقد طاب المسير، إلى القاهرة ذات الوجه المنير ، وبهجوم الليل واختلاف الميل حولت الماشات إلى ناحية البر، ولقد لهم حسن المقام والمقر ، وبتنا فيه والبسط يصافحنا فتسامر مع الإخوان ، ما يكون وما كان، وعلت أصوات الملاحين، بالنغمات المصرية والتلاحين، وغنى محمد الدفة مواليا فى المديح النبوى له حقه فاستمدناه وكتبناه وهو :

خذنى معك يادليل الركب يامنصور ... أزور قبر النهامى فج منه النور

قال الدليل ياصبى تقدر تدوس الدور ... قلت عيان زى يجبر المكسور

وغنى فقال :

للقرص صاحب الشيبه كتم مابح ... نايم حبيبو على فخذه وهو مرتاح

نزلت دموعو فقال لو ليش تبكى ارتاح

قال لو قرصنى الحنش فى العقب يامصباح

قال النبى للحنش لم صبت صديق ... ذا مؤنسي فى ظلام الليل ورفيق

نطق الحنش للنبى بلسان تحقيق ... قال لو أنيت الزيارة وام تعويق

« ثم إنا لما أشرقت الغزالة، على وجه أخت الخالة، سرنا باللبان إلى أن أتينا بطن البقرة ، فاستمدنا بالله من هوله متوسلين بسورة البقرة

في بولاق ، وقصور الامراء والمجاورين فى الأزهر :

« ولم ندخل بولاق إلا بعيد العشا ، وعلينا ضوء القمر مد رفشى، وما استقر بنا المقام غب الوصول للمقر المكين، حتى ورد علينا إخوان من المجاورين منهم الشيخ أحمد الأشبولى الزين ، وإسماعيل افندى وغيرهما من محبين ، وسرنا معهم (لتكية الأعجام) وبتنا آمنين بحفظ مكين، وفى الصباح وفد الأخ المداوى الشيخ محمد الحفناوى ، ومعه أحباب لهم لحبل الود انتساب ، ودخلنا ونحن فى سرور المديد ، وزرنا الجناب العالى مقام السيد السند الأوحد الحسين ، ونزلنا (وكالة محسن الجديدة)

فبعث بأخيه وابنه إلى أهل العراق الثائرين يعرض عليهم شروطا للصلح تقوم على عزل الحجاج عن العراق وتولية ابن الأشعث مكانه فرفض الثوار شروط الصلح رفضا باتا ، فأخذ الحجاج يقاتل الثوار برغم ما تركته محاولة عبدالملك الصلح مع الثوار فى نفسه من الألم

جرت بين الفريقين حروب كثيرة ومعارك حامية الوطيس فى دير الجماجم بالقرب من الكوفة كانت نتيجتها انهزام جيش ابن الأشعث ففر ابن الأشعث إلى بلاد رتبيل فدخلها لاجئا وعاد الحجاج إلى ما كان له من سلطان فى العراق

وكان من أمر ابن الأشعث أن قبض عليه رتبيل وقتله وقبض على أهل بيته وأرسلهم مع رأس عبد الرحمن إلى الحجاج كسبا لرضائه

محمد الحسينى